صحائف مطـــوية

الجنرال فيجان فى سوريا ولبنان

للأستاذ أحمد رمزى

حينما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية ، عين فى سبتمبر ١٩٣٩ الجنرال فيجان القائد الفرنسى المعروف ، وصاحب الشهرة الذائعة فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤—١٩١٨ على رأس جيش الشرق فى ميدان البحر الأبيض المتوسط ، وقد حضر إلى بيروت وجعل عمارة كبيرة ذات عدة طبقات مركزاً لقيادته — وهى العمارة التى أصبحت بعد الاحتلال البريطانى مركزاً لبعثة الجنرال اسبيرز — فكأن المقادير قد ربطت هذا البناء بأكبر الحوادث التاريخية لسوريا ولبنان إذ اتخذت فى حجراته أخطر القرارات وجرت فيه معظم المفاوضات التى غيرت الكثير من أوضاع البلدين

وكان الجنرال فيجان فى نوفمبر ١٩٣٩ يقيم فى قصر شاهق برأس بيروت تعرفه من مفرزة الجنود الجراكسة التى تتولى حراسته ليل نهار ، والتى كانت موضع انتقاد زميلين لى من ممثلى الدول الشرقية ، وقد حظيت بمقابلة الجنرال فى مركز قيادته ، ودارت بيننا محادثات ، ففى المقابلة الأولى لقيته فى صباح يوم من شهر نوفمبر ، وكان قد تحدد موعدها قبل ذلك بيومين ، وقد أخذت الأهبة لهذا اللقاء لعلمى بمنزلة القائد التاريخية ، ولوثوق من شخصيته ونظرته النافذة ، ولذلك حرصت على أن أتحين الفرصة وأخرج من المقابلة الأولى ، وقد توطدت بعض الثقة بيننا ، أو شىء من العلاقة غير الرسمية ، أقصد التى يتخللها بعض الصراحة .

فكيف أعمل لذلك ؟

كان علىّ أن أستجمع كل معلوماتى وما بقى بالذاكرة من حوادث الحرب الماضية وتجاربها ودروسها ، فمنها بعض ما قرأته فى المؤلفات المختلفة وبعض ما سمعته بمعهد زوريخ ، ثم كان علىّ أن أراجع ما قرأته من مؤلفات الجنرال فيجان نفسه ، وأولها مؤلفه عن « حروب محمد على » ، وهو كتاب معروف ومتداول ، ولم ينقصنى سوى كتابه عن « تاريخ الجيش الفرنسى » ، وسرعان ما جبت المدينة باحثاً منقباً لدى باعة الكتب ، حتى حصلت على نسخة من هذا الكتاب ، فأمضيت ليلتين فى تصفحه ، وقرأت المقدمة مرات ، وأخذت أتعرف على أسلوبه وطريقته فى سرد الحوادث وشرح المعارك التى خاضها فرنسا ؛ ولا تنس أن فيجان عضو فى الأكاديمية الفرنسية ، فهو قائد وكاتب وأديب .

ولقد أفادنى ذلك كثيراً : أولا لأنى من ثنايا كتابته تعرفت على الجنرال ، ومن تقليب صفحات كتابه الأخير فهمت ميوله السياسية ، ولذلك شعرت بهدوء وثبات ، وكأنى أعرف الجنرال معرفة أكيدة قديمة لما توجهت إلى مركز القيادة ، واستقبلنى ياوره وصعد بى إلى الطابق الثانى ، وأدخلنى إلى حجرة تطل على ناحية المدينة بعكس الجنرال اسبيرز الذى حينما احتل المكان كانت حجرته دائماً تطل على البحر ، ولما استأذن لى من الجنرال أدخلنى إلى غرفة متسعة ، أول شىء لفت أنظارى هو أن حيطانها قد غطيت بالخرائط المفصلة : لأفريقية الشمالية إلى حدود مصر ،

المتأخرون فسموا العبد خالقاً على الحقيقة .

* * *

ج ١٩ ص ٣٩ : وقال ابن شرف القيروانى فى وصف وادى عذراء بمدينة برجة من أعمال المُرِّية .

رياض غلائلها سندس توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خط الربا لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنة وكل طريق إليها سفر

وجاء فى شرح (سفر) سفره وأسفره أضاء ، فلعله يريد أن الطريق إليها مضىء مشرق ، فإن هذا مناسب للشطر قبله وللمدح .

قلت : (المرية) بفتح الميم وكسر الراء مخففة كما ضبط ياقوت ، وقد أورد مقطوعة فى (معجم البلدان) لابن الحداد يقول فيها :

خفى اشتياقى وما أطويه من أسف
على المرية والأنفـــاس تظهره

وصدر البيت الثانى (مدامعها فوق خدى ربا) وعجز البيت الثالث (وكل طريق إليها سفر) أى وعر صعب .

فى النفح : وبمدينة برجة (وهى من أعمال المرية) معدن الرصاص ، وهى على واد مبهج يعرف بوادى عذراء ، وهو محدق بالأزهار والأشجار ، وتسمى برجة بهجة لبهجة منظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيروانى : (رياض تعشقها سندس)

كنا نعلم الكثير من هذا ، ولكن ثقتنا بالجنرال كانت كبيرة ولا حد لها ، خصوصاً فى فنه وعبقريته . ولما استأذنت ، ودعنى قائلا : إنه يسر أن يرانى من وقت لآخر . ولم تمرض المرة الثانية إلا قبيل سفره إلى مصر فى فبراير التالى ، إذ بدأت حديثاً معه ، فأشرت إلى الماريشال فوش ، وكان الجنرال رئيساً لأركان حربه ، وقلت : إننى أقف فى كل مرة أزور الانفاليد بباريس أمام الخريطة الكبيرة التى كان يدير بها العمليات الحربية بالميدان الغربى ، وأعجب من عبقريته ، وأفضى بنا الحديث إلى معركة المارن وأثر فوش ، وإلى النظرية الفرنسية للحروب ، وعبقرية نابليون وإشادة فوش بها فى دروسه بأكاديمية الحرب الفرنسية.

وانتقلنا عرضاً إلى الديمقراطية ، وهى وإن بدت ضعيفة فى الاستعداد الحربى ، إلا أن الكلمة الأخيرة لها ، لأنها ستكسب فى النهاية المعركة الفاصلة .

وكان هذا الحديث الشائق يسير متواصلا إلى أن قطعه بأن أخذ يتحدث عن الجيش المصرى فوجه إلى عدة أسئلة دقيقة مثل: من كم فرقة يؤلف جيشكم ؟ كم شهراً يأخذ التدريب الفنى لجندى المشاة ؟ هل لديكم مدارس لضباط الصف ؟ ما هو التسليح الجديد والأنظمة الحديثة التى أدخلتها البعثة العسكرية البريطانية على جيشكم ؟ ما هى الوحدة الأساسية التى يبنى عليها التدريب لكى تدخل القتال مستقلة اللواء أم الفرقة ؟ هل لديكم سلاح للمهندسين بالجيش ؟ هل بوسع جيشكم أن يدخل الميدان أمام قوات منظمة على الحرب الحديثة ولصد هجوم جيوش أوروبية ؟ ما هو مستوى ضباط الأركان حرب عندكم ، وهل لديكم ضباط درسوا فى دول غير بريطانيا ؟

كانت ثرثرتى حول بعض المبادئ العامة مما جعله يعتقد أنه أمام جندى فى زى ملكى ، أما أنا فقد احترت كثيراً ، وكنت كمن فتح لنفسه باباً لا يقدر عليه ، ووقفت أسائل نفسى : هل أجيب على أسئلة الجنرال على الطريقة المعتادة لدينا ، وفى صحفنا وأنديتنا فأقول : إن جيشنا على تمام الأهبة والاستعداد لتلبية واجب الوطن ، وإن لدينا معدات كاملة ، وإن قوادنا من الدرجة الأولى فى فنون الحرب والقتال ، بل إن منهم من وضع خطط الدفاع للصحراء الغربية . لا شك فى أن قولى هذا لم يكن يقدم أو يؤخر ، ولكن أمامى قائد من كبار قواد فرنسا سوف يذهب بعد أيام إلى مصر ، وسيلتقى برجالنا وقوادنا ، وسيعرف بالضبط مقدار معلوماتهم ، وسوف يحادث رجال فرنسا عندنا ويقابل الجنرال ويفل والجنرال ويلسون وضباط البعثة البريطانية ، وسيقف على كل صغيرة وكبيرة . فوقفت متردداً ثم قلت : إن الجيش المصرى يتطور بسرعة نحو استكمال أسلحته ، وسترى فى مصر وتسمع الكثير عنه ، ولا شك أن الخطوات ثابتة . ويذكرنى حديثكم عن أيام قضيتها بإيران ، والتقيت مرة بأفراد البعثة العسكرية الفرنسية المكلفين بتنظيم الجيش الإيرانى ، فسمعت أحدهم يقول : « إن الحكومة الإيرانية تطلب منا أن نخرج لها ضباطاً صالحين للقيادة بعد دراسة لا تطول أكثر من سنتين ، ونحن فى فرنسا نحتاج إلى عشرين عاماً لتهيئة وتكوين ضابط من ضباط الأركان حرب الذين تستطيع أن تعتمد عليهم الدولة فى تحريك فرقة من الجنود وقيادتها فى ميدان القتال » .

وهنا نظر إلىّ الجنرال طويلا وابتسم ، إذ فى ذلك كل الإجابة على أسئلته المحرجة ، ولكنى أردفت ذلك بقولى له : إن مواد العمل صالحة وجيدة ، وإن قوة احتمال الجنود وصبرهم من ميزات الجيش المصرى ، بل هى أهم عوامل البناء التى يمكن الاعتماد عليها فى إخراج جيش حديث يعيد بعض مواقف السلف فى الماضى ، ولا شك أنكم كتبتم شيئاً من ذلك فارجعوا إلى ما أشرتم إليه فى كتابكم

فهز رأسه موافقاً على ما قلت ، وافترقنا ، وبعد أسبوع من هذه المقابلة سافر الجنرال إلى القاهرة ، ولقى من السلطات المصرية والبريطانية كل ترحاب ، وأقيمت له المآدب وحفلات التكريم ، منها مأدبة رفعة على ماهر باشا التى أقامها على شرف الجنرال فى فندق سميراميس ، وقد دعى إليها كثير من العظماء وأهل الرأى من العظماء وكبار ضباط الجيشين المصرى والبريطانى ، وأدلى رفعته بحديث نقلته وكالات البرق قال فيه :

« إن مصر تنتبط باستقبال القائد العظيم وتقدّر صفاته العسكرية الممتازة وماضيه المجيد وتحيى فيه ممثل فرنسا النبيلة » .

وأقيم له استعراض عسكرى اشتركت فيه بعض الوحدات الميكانيكية من القوات البريطانية والمصرية والهندية ، وكان رافقه

القائد البريطانى الجنرال ويفل أثناء العرض .

وتعود بى الذكرى هنا إلى عام ١٩٤٢، حينما تعددت مقابلاتى مع الجنرال كاترو الفرنسى ، وذلك بعد احتلال سوريا ولبنان ، وفى إبان المفاوضات التى انتهت بعودة الحياة الدستورية بالبلدين ، إذ أننى قابلته فى يوم ١٦ أكتوبر ١٩٤٢ ، وتناول الحديث مسائل متنوعة ، ولكنه صرح لى وقد قيدت ذلك فى حينه :

إنه كان حاضراً فى مجلس الحرب الأعلى للحلفاء فى باريس ، وذلك قبل خروج فرنسا من الحرب ، حينما عرض التقرير الذى وضعه الجنرال فيجان عن رحلته إلى مصر فى فبراير ١٩٤٠ وعن الحالة الحربية ، وأن الجنرال سجل إعجابه بالجنود المصريين وحسن استعدادهم للخدمة العسكرية ، واقترح وجوب زيادة الجيش المصرى ، كما أشار إلى ما يجنيه الحلفاء من الفائدة والمعونة إذا وقف بجانبهم جيش مصرى قوى ، وقد أخذ مجلس الحرب الأعلى بهذا الاقتراح ، وكان من ضمن القرارات التى وافق عليها .

وعاد الجنرال فيجان من مصر فبدأ رحلاته إلى الداخل ، وكثرت تنقلاته ، وكانت مقابلاته بعد ذلك عرضية ونادرة ، وأغلبها فى ميدان السباق ، ولكن توطدت مع معاونه الجنرال كابو ومع أركان حربه ومكتبه علاقات ودية ثابتة ، فما اتصلت بشىء لدى السلطات العسكرية عن طريق القيادة ، وإلا وأجيب طلبى أو رجائى فوراً ، أو كان محل اهتمامهم وتحرياتهم بعكس السلطات المدنية التى طالما تمهلت وتأخرت ، ثم ألقت أسباب عجزها على السلطات العسكرية ، ولقد كان ذلك موضع سمرنا فى المفوضية الفرنسية خصوصاً المكتب الدبلوماسى الذى إذا احتج بالعسكريين بادرت بأن أعلمه أننى مستعد للذهاب إليهم رأساً لإزالة ما نشكو منه ، وكان المكتب يعلم بما تقدمه السلطات العسكرية من تسهيلات لمصر فى مقابل ما تبذله مصر من تسهيلات للعسكريين

هذا هو الجنرال الفرنسى الذى ساهم مساهمة فعلية فى قيادة فرنسا إلى النصر فى الحرب الأولى ، والذى وطد نفوذ بلاده فى الأشهر الأولى من الحرب العالمية الثانية ، كان فى حركاته ومشيته تفيض منه الطمأنينة والثقة ، فيتأثر منها الغير لدى مواجهته أو مصافحته أو رؤيته ، ويشعرون بنفس الثقة والاطمئنان .

وأذكر مرة أنى رأيته داخلا الجامع العمرى بمدينة بيروت بمناسبة المولد النبوى الشريف ، فهتفت له الجماهير الإسلامية طويلا ، وحملته على الأعناق ، ودخلت به المسجد .

ولقد رأيت الكثيرين من ممثلى البلاد الأوروبية فى الشرق فلم أر مثل فيجان ، ولقد وصل غيره ، ورتبت لهم الهتافات إلا أن الجماهير لم تغمرها روح الحماس الذى كانت تحس به عند رؤيتها الجنرال الشيخ والشاب فى نفس الوقت .

وفى ليلة من الليالى استدعى إلى باريس لقيادة جيوش الجمهورية وسد ثغرة سيدان ، لقد تحطمت الجبهة واندكت حصون خط ماجينو فى الشمال والزحف الألمانى لايقف ، وراديو برلين يصيح « لو بعث نابليون من قبره ، لما كان فى وسعه أن يغير القدر المحتوم ! » لقد هزمت فرنسا وتمزقت جيوش الجمهورية !

وكنت جاراً للجنرال كابو ، وقد زالت الكلفة بيننا ، وفى عصر أحد الأيام دعانى لمنزله ، وقال إنه يغادر البلاد الليلة إلى مصر فالسودان فأفريقيا الغربية فمراكش إلى فرنسا ، وذلك بناء على دعوة فيجان ، إذ يجب أن يكون بجبهة القتال قبل أربعة أيام قلت إنكم تنتظرون قرارات حاسمة . قال : إن إنقاذنا يحتاج لمعجزة

Seul un miracle peul nous sauver.

ودمعت أعين القائد أمام هذا التصريح ، فاستأذنت بعد أن حملته سلاماً للقائد الذى وضعت فرنسا وبلادى مصر وغيرنا من البلاد آمالها فى عبقريته وفنه العسكرى يوماً من الأيام .

وانتهت صفحة من تاريخ العالم بمعاركه وفواصله وأسلاكه الشائكة !

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

أحدث مطبوعات دار الفكر الحديث شارع خيرت القاهرة

صبابة الكأس .

رباعيات من الشعر الرفيع للأستاذ إبراهيم هاشم الفلالى مع مقدمة للأستاذ الكبير على محمود طه .